في التنوير الإسلامي

« ٦٥ »

روح الحضارة الإسلامية

للشيخ / محمد الفاضل بن عاشور

تقديم و تعليق

د. محمد عمارة







في التنوير الإسلامي ٦٥



روح الحضارة الإسلامية

للشيخ/ محمد الفاضل بن عاشور

تقديم وتعليق

د. محمد عمارة



نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨
www.nahdetmisr.com

بسم الله الرحمن الرحيم



بيانات الكتاب:

اسم الكتاب	روح الحضارة الإسلامية.
اسم المؤلف	د. محمد عمارة.
إشراف عام	داليا محمد إبراهيم.
تاريخ النشر	الطبعة الأولى نوفمبر 2003م.
رقم الإيداع	2003/ 18178
الترقيم الدولي	ISBN 977-14-2486-6

بيانات الناشر:

الإدارة العامة للنشر	21 ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة. ت: 3466434(02) 3472864 (02) فاكس: 3462576 (02) ص.ب: 21 إمبابة.
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر	Publishing@nahdetmisr.com

بيانات المطابع:

المطابع	80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) - فاكس: 8330296 (02).
البريد الإلكتروني للمطابع	Press@nahdetmisr.com

بيانات مراكز التوزيع:

مركز التوزيع الرئيسي	18 ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة. ت: 5909827 (02) - 5908895 (02) - فاكس: 5903395 (02) ص.ب: 96 الفجالة - القاهرة.	
مركز خدمة العملاء	الرقم المجاني: 08002226222	
البريد الإلكتروني لإدارة البيع	Sales @nahdetmisr.com	
مركز التوزيع بالإسكندرية	408 طريق الحرية (رشدي)	Tel : (03) 5230569
مركز التوزيع بالمنصورة	47 ش عبد السلام عارف	Tel : (050) 2259675

موقع الشركة على الإنترنت

كافة إصدارات شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع تجدونها على موقع الشركة بالعنوان التالي:
www.nahdetmisr.com الرقم المجاني 07775666

تمهيد

بقلم الدكتور / محمد عمارة

صاحب هذه الدراسة ـ عن (روح الحضارة الإسلامية) وعلة تخلف المسلمين . . وطريق النهوض الحضارى للأمة ـ هو واحد من أعلام علماء المسلمين فى القرن الرابع عشر الهجرى ـ العشرين الميلادى ـ :

- إنه الشيخ العلامة محمد الفاضل بن الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (١٣٢٧ ـ ١٣٩٠هـ/ ١٩٠٩ ـ ١٩٧٠م) . . ولد فى تونس وتربى ونشأ فى بيت من أعظم بيوت العلم الإسلامى فى تونس . . حيث كانت شهرة والده وإنجازاته فى العلوم الإسلامية قد طبقت الآفاق .
- وفى المعهد الزيتونى ـ جامعة الزيتونة ـ درس وتخرج عالمنا محمد الفاضل . . وتولى التدريس فى هذه الجامعة الدينية العريقة . . وترقى حتى أصبح عميدا لها .
- ولقد جمع إلى العلم الشرعى ، ملكة الأديب ، وموهبة الخطيب . . والإبداع فى فلسفة الحضارات . .
- ولم يقف به نشاطه عند علم العلماء وأدب الأدباء . . وإنما شارك مشاركة نشطة فى مقاومة الاستعمار الفرنسى ، الذى كان يفرض احتلاله العسكرى وهيمنته السياسية

والاقتصادية والثقافية على تونس فى ذلك التاريخ . . ولقد جمعت هذه المشاركات ما بين التصدى للاحتلال العسكرى والهيمنة الإدارية وما بين مقاومة «الفرنسة» ومحاربة «التغريب» والاستلاب الحضارى . . والدفاع عن الشريعة الإسلامية . .

● كذلك ، تولى شيخنا محمد الفاضل بن عاشور منصب القضاء بتونس . . وارتقى على سلم الولايات الدينية حتى تبوأ منصب الإفتاء فى القطر التونسى .

● وإلى ما وراء الحدود التونسية امتد علم عالمنا الجليل ، فألقى المحاضرات فى العديد من الجامعات . . فى السربون - بفرنسا - وجامعة استانبول - فى تركيا - وجامعة عليكرة - بالهند - . . إلخ . . وشارك فى العديد من الندوات والمؤتمرات العلمية . . ومؤتمرات المستشرقين . . ونال عضوية مجمع الخالدين - مجمع اللغة العربية - بالقاهرة - . . ورابطة العالم الإسلامى - بمكة المكرمة - .

● ولقد كان الشيخ محمد الفاضل بن عاشور - مثل والده الشيخ محمد الطاهر بن عاشور - حلقة من سلسلة علماء مدرسة الإحياء والتجديد الإسلامى التى تبلورت من حول جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ/ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م) والإمام محمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) لتجديد دنيا المسلمين بتجديد دين الإسلام .

• ومن آثاره الفكرية والأدبية ـ غير هذه الرسالة التى نقدم بين يديها ـ كتابه النفيس عن (التفسير ورجاله) . . وكتبه عن (أعلام الفكر الإسلامى وتاريخ المغرب العربى) و(أركان الحياة العلمية بتونس) و(أركان النهضة الأدبية بتونس) . . وغيرها من آثاره فى الفقه . . والفتوى . . واللغة العربية . .

أما هذه الدراسة النفيسة ، التى كتبها عالمنا الجليل عن (روح الحضارة الإسلامية) فإنها تعالج معضلة المعضلات فى محاولات الأمة الإسلامية الدائبة ـ منذ قرون وحتى هذه اللحظات ـ للانعتاق من قيود التخلف الحضارى الذى يأخذ منها بالخناق .

***

لقد كانت الصناعة الثقيلة التى بدأت الدعوة الإسلامية فأقامتها ، منذ المرحلة المكية ، هى صناعة الصياغة الإسلامية للإنسان الذى تدين بدين الإسلام .

وكانت «دار الأرقم بن أبى الأرقم» ـ فى مرحلة سرية الدعوة الإسلامية ـ أى منذ فجر تلك الدعوة هى أولى المؤسسات التربوية التى أقامها رسول الإسلام ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

وقبل فتح المسلمين للمدائن والأمصار والأقطار ، وقبل إقامة الدولة . . وتغيير الواقع . . وتطبيق القانون . . وبلورة العلاقات الدولية . . كان الفتح الإسلامى للقلوب والعقول بهدى القرآن الكريم ، ذلك الذى أصبح خلق سلوك وممارسات ، وسجية للحياة التى يحياها المسلمون . . بل إن أولى المدن التى فتحها المسلمون

ـ قبل الهجرة النبوية . . وقبل الدولة الإسلامية ـ وهى المدينة المنورة ـ قد فتحها المسلمون بالقرآن الكريم! . .

وبعد إنجاز الصياغة الإسلامية ـ بالتربية ـ للإنسان . . جاءت كل الإنجازات والفتوحات ، وفى ميادين الحضارة وعلومها والثقافة وآدابها وفنونها . . فكانت تجسيدا لهذا الذى سبق وتم إنجازه فى نفس الإنسان ، جاءت جميعها مصاغة بمعايير الإسلام ، التى سبق وصاغت نفوس وعقول وقلوب الذين اهتدوا بهدى الإسلام .

- إن الدعوة الدينية ـ فى الإسلام ـ لم تقف عند حدود تدين الإنسان ، وتحقيق عبوديته لله بالشعائر المعبرة عن الإيمان القلبى ، والمفصحة عن علاقته بالسماء . . وإنما امتدت هذه الدعوة لتحقق ائتلاف هذا الإنسان بالأمة ، والمجتمع ، والكون ، فتوحدت فى نفس هذا الإنسان عوالم الغيب والشهادة ، وائتلفت فيها وتوازنت علاقات الفرد بالمجموع ، والخاص بالعام ، فتدينت الدنيا ، مع بقائها دنيا ، عندما صاغ الإسلام نفس الإنسان المسلم ووجدانه وعقله تلك الصياغة التى ائتلفت فيها وتوازنت آيات الله فى الوحى السماوى بآياته فى الأنفس والآفاق .
- إن دين الإسلام لا يقوم ولا يقام بالتبتل الفردى والخلاص الذاتى ، وإنما لابد لإقامته وتحقيق كامل فرائضه من أمة ووطن واجتماع ومجتمع ، وفروض اجتماعية ، يتوجه الخطاب فيها

والتكليف بها للأمة ، وهذه الفروض الاجتماعية أهم وآكد من الفروض الفردية بدليل أن إثم التخلف عن الفريضة الفردية يقع على الفرد وحده ، بينما إثم التخلف عن الفريضة الاجتماعية يقع على الأمة جمعاء .

- وفى دين الإسلام ، اقترنت الهجرة فى سبيل الله بتأسيس الدولة وإقامة المجتمع وتطبيق القانون وإقامة نسيج اجتماعى بين الرعية يحقق المؤاخاة لا فى الحقوق الدينية المجردة فقط ، وإنما فى أمور المعاش الدنيوية أيضا . . بل لقد امتد هذا النسيج بمعايير المواطنة ، وحق الاختلاف حتى فى الدين إلى حيث ضم هذا النسيج غير المسلمين مع المسلمين .

فالهجرة إلى الله ليست رهبانية تخلص فيها وبها الذات ، بمعزل عن الحياة والناس . . بل إن رهبانية الأمة الإسلامية هى الجهاد الذى هو فريضة اجتماعية تستلزم وجود الأمة والوطن والاجتماع .

- لقد أحدثت الدعوة الدينية الإسلامية أثرًا تكوينيا تربويا فى شخصية الفرد المسلم ، أصبح عاملا نفسانيا حقق ائتلاف العناصر الفردية فى المجتمع الإسلامى ، الطبيعى منها والشرعى ، المدنى منها والدينى ، العقلى منها والنقلى ، المادى منها والمجرد . . فكان ذلك الائتلاف حضارة إسلامية ، أبدعها الإنسان الذى صاغته الدعوة الإسلامية . . وتلك خصيصة من خصائص الدين الإسلامى والحضارة الإسلامية . . فالرسالات الدينية التى سبقت رسالة الإسلام الخاتمة ، إما أنها تزامنت مع

حضارات غير متدينة ، فتعايشت معها ، دون أن تغيرها وتصبغها بصبغتها ، بسبب وقوف تلك الرسالات عند حدود خالص الدين .. وإما أن تلك الحضارات السابقة على الحضارة الإسلامية قد عاشت فى أزمنة الفترة التى خلت من رسالات الدين ..

بينما تميز الإسلام بكونه دينا فجّر حضارة ، وصاغ مدنية ، وأثمر اجتماعا إنسانيا ، وألّف فى نفس الإنسان - بالمنهاج التربوى الشامل - ذلك الائتلاف المتوازن ، الذى جعل هذا الإنسان يبدع الحضارة المصطبغة بصبغة الدين .. لقد حقق الدين الإسلامى الائتلاف والتوازن والأمن فى نفس الإنسان المسلم ، فجاء الإبداع المدنى لهذا الإنسان - أى الحضارة الإسلامية - ثمرة مجسدة لهذا الذى أحدثه الدين فى نفس هذا الإنسان .. فلما حدث وبعدت هذه الحضارة وثقافتها عن هذه الصبغة كان هذا الخلل الذى نشكو منه والذى حدث منذ قرون ، والذى تطبّ لدائه كل دعوات وحركات الإصلاح فى أمة الإسلام .

- ومن دعوات الإصلاح من سلك طريق الفردية المطلقة ، الباحثة عن خلاص الذات الفردية ، وتنكب طريق المجتمع والحضارة - كالصوفية المغالية فى التحلل من الضوابط والمعايير الاجتماعية للشريعة - .. ومن المصلحين من أرجع الداء إلى الفكر - كحجة الإسلام الغزالى (٤٥٠ - ٥٠٥هـ ١٠٥٨ - ١١١١م) - ومنهم من ركز على تنقية العقيدة مما شابها وطرأ عليها - كشيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨م) - ومنهم من عالج

جانب الشريعة بإبراز مقاصدها ـ كالشاطبى (٧٩٠هـ ١٣٨٨م) ومنهم من ركز على الجانب السياسى فى عوامل الخلل ـ كجمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ/ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م) ـ ومنهم من لفت الأنظار إلى إصلاح مناهج الفكر والتجديد ـ كالإمام محمد عبده (١٢٦٥ ـ ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م) ـ . .

- ثم كان العصر الحاضر ـ عصر الأخذ عن الغرب ـ والذى شهد ثمرات واضحة لكل دعوات الإصلاح السابقة ـ . . ومع ذلك بقى الخلل . . وبقيت الأمة تبحث عن مفتاح الإصلاح ، وطريق الخلاص والنهوض .

- وإذا كان الإسلام هو سبب تقدم المسلمين ، ونهوضهم الحضارى ، وازدهارهم الثقافى . . فما سبب التخلف الذى أصاب المسلمين ، مع بقاء الإسلام كما هو على حاله الذى كان عليه عندما فجر ينابيع التقدم فى الحياة الإسلامية؟ . .

إن السبب هو غيبة «الروح» ـ روح الدين الإسلامى ـ عن الحضارة ـ الحضارة الإسلامية ـ هو انقطاع الاتصال بين الإسلام وحضارة المسلمين . . هذه الروح التى جعلت الحضارة إسلامية بل والتى فجرتها وصبغتها بصبغة الإسلام .

لقد جلس الحسن البصرى (٢١ ـ ١١٠هـ/ ٦٤٢ ـ ٧٢٨م) إلى واعظ من الوعاظ ، فلم يتأثر قلبه بموعظته ، فسأل الحسنُ الواعظ : «يا أخى ، أبقلبك مرض أم بقلبى»؟! . . إن انقطاع الاتصال ، لغيبة الروح ، هو سبب المرض والمأزق الحضارى ، الذى تطب له وتبحث عن علاجه مختلف مدارس الإصلاح .

فما هى هذه الروح التى جعلت الإسلام، دون الديانات الأخرى، يصنع حضارة وثقافة، ولا يقف عند مجرد الدين؟..

وأين موطن الخلل الذى عطل الفعل الإسلامى فى الحضارة والثقافة.. فتراجعت الحضارة الإسلامية؟ وضمرت الثقافة الإسلامية، مع بقاء الإسلام الدين كما هو، وبقاء الإيمان به والاستمساك بعراه؟..

لقد عرض الشيخ محمد الفاضل بن عاشور لهذه القضية المحورية عندما تحدث عن:

١- **تميز الإسلام الدين بإفراز الحضارة، وبناء الثقافة:** «فإذا كان الإسلام باعتباره دينا يشترك مع غيره من الأديان فى القضايا التى هى موضوع الديانات عامة، فإن للإسلام نواحى ينفرد بها عن تلك الديانات، التى اشترك معها فى القضايا الدينية بصفة عامة إذ تكون له جهات اتصال بالثقافات والحضارات ليست لغيره من الأديان الأخرى.. فهذه التى نسميها الحضارة الإسلامية، أو تلك التى نسميها الثقافة الإسلامية، إنما هى سلاسل من الأحداث والأوضاع والكيفيات الاجتماعية والذهنية كان الإسلام مبدأ نشأتها وسبب تكوينها.. فلم يقف الإسلام عند التعايش مع العلم.. وإنما أصبح كل موضوع علمى ذا صلة بالعقيدة الدينية.. وصار الارتباط بين الدين والمعرفة العقلية، أو بين علم الطبيعة وعلم ما وراءها ارتباط التفاعل والتمازج.. ونشأ من ذلك اتجاه نحو

الحياة والسلوك فيها ، يدفع به العامل الديني الاعتقادى فى كل وجه من وجوهه ، وسبيل من سبله . . فصار الداعى الدينى يتجلى فيما يصنع العالم ، وما ينتج الأديب ، وما يصوغ صاحب الفن . . وصارت المعرفة العلمية سندا لكلام المتكلم ، وفقه الفقيه ، وتصوف الصوفى ، على الصورة التى ربطت عناصر المعرفة ، وأخرجت كتب العقيدة الإسلامية جامعة للمعارف الطبيعية والرياضية والإنسانية ، مع الحقائق الاعتقادية ، يتجانس فيها العلم مع الدين ويتساند العقلى والنقلى . . لقد تكوّن المجتمع الإسلامى بإثر دعوة دينية . . إنه مجتمع دينى بالمعنى الأخص ، كان الدين فيه العامل الأول المباشر . . ومن دعوة الدين والإيمان بها اكتسب الشعب الذى استجاب لتلك الدعوة وامتاز بذلك الإيمان خلالا نفسية جديدة . . لم يستفد علما ولا صناعة ولا قوة مادية ، ولكن الذى اكتسبه من الخلال طوّع العلم والصناعة والقوة المادية فكانت المدارك الدينية وحدها هى التى فتحت أمام نظر المسلم آفاق الكون للتأمل والاعتبار والمعرفة والإيمان .

فالحقيقة الاعتقادية الإلهية هى الأساس لكل ما بنت الحضارة الإسلامية من هياكل حسية ومعنوية ، وإنسان هذه الحضارة بالدين فكّر . . وبالدين تحضّر . . وبالدين أنتج آثار حضارته . . وبالدين أقام الدولة الصائنة للمجتمع وحضارته ، وكذلك استمرت مظاهر الحضارة متصلة فى نفسه بالدين ، وعوامل الدين فعالة فى مظاهر الحضارة . .» .

٢. كذلك امتازت هذه الحضارة الإسلامية وثقافتها بالتوازن والانسجام:

لأنها ثمرة لامتياز الإسلام بتحقيق التكامل والتوازن والانسجام في مصادر المعرفة الإنسانية . . «فكل الحقائق، المتصلة بالمادة والمتصلة بما وراءها هي في متناول الإنسان، يستطيع أن يتوصل إليها بمداركه العديدة المدرّجة، المستند بعضها إلى بعض، في غير تنافر ولا تدابر ولا تناشز . . فالمدركات الغريزية وراءها المدركات الحسية . . ثم المدركات الحسية وراءها المدركات العقلية . . ثم المدركات العقلية تؤدي إلى المقدمات المفضية إلى تلقي المدركات الغيبية الآتية من طريق الوحي وإلى التسليم بها والإذعان لها . . وتبقى هذه المدركات كذلك متعاونة متساندة لا يمكن أن يحصل بطريق واحد منها ما يتناقض مع الحاصل من طريق مدرك آخر، إلا أن بعض ما يقصر عن الإحاطة به أحد هاتيك الطرق يمكن أن يتصل به طريق آخر منها حتى تنتهي إلى الإذعان للمدركات الحاصلة بالطريق الخارق للعادة وهو طريق الوحي . .

فعقل الإنسان وعقيدته وحسه المادي وعواطفه الغريزية كلها متجانسة متعاونة لا يخشى بعضها بعضا ولا يقطع أحد سبيل الآخر .

لقد كانت الحضارة الإسلامية من أثر إنسان اكتسب وضعا منسجما في ذاته آمنا إلى نفسه فصنع على مثال نفسه حضارة أكسبها ما اكتسب، وأفاء عليها مما أفاء الله عليه، حتى فاقت بما فيها من انسجام غيرها من الحضارات» .

٣ـ لكن.. ما الذى حدث حتى تخلفت الحضارة الإسلامية وتهلهلت ثقافتها . . مع بقاء الإسلام ـ الذى صنعهما وحقق لهما الازدهار الذى دام لعدة قرون كانا فيه منارة للعالمين على ما هو عليه؟ . . «لم يكن المصاب العزيز هو الإسلام ، وإنما كان الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية . . وكانتا تتطلعان إلى الإسلام بذاته ، تحنان إليه ، وترجوان شفاءهما عنده . . وكان القريب والبعيد يدركون أن ما نزل بالمجتمع الإسلامى ؛ فى حضارته وثقافته ليس إلا أمرا آتيا من انحراف عن الأصل ، وانقلاب فى الوضع ، وانفلات عن العامل التربوى الأصلى الذى لزم الأصول ، وأحكم الأوضاع . . فلقد أصاب الحضارة والثقافة ما عزلها عن صدق الاستمداد من الإسلام ، ومتين الاعتماد عليه ، حتى مال عمادها واضطربت أوتادها . .» .

فالخلل لم يحدث فى ذات الإسلام . . وإنما فى توقف عقيدة الإسلام عن أن تكون روح الحضارة . . وانكماش الإرادة الاعتقادية البناءة للحضارة . . وغربة الحضارى عن الدينى . . وتفكيك الدين عن الدنيا . . «وإن تبيّن الناحية من العقيدة التى أصابتها العلة ، هو الذى يكشف عن الأسباب التى قضت بضعف الحضارة وتهلهلها . .

إن الذى حدث فى العقيدة الدينية وقضى بتضعضع الحضارة إنما هو انكماش صدّها عن أن تخلع من روحها على الحضارة ، فأصبحت الحضارة خائرة جامدة لا تتقدم . . وما

كان ذلك الانكماش إلا أثرا من آثار الضعف ، الذى أصاب العقيدة فى جوهرها . . إن الإرادة الاعتقادية البناءة هى التى خارت وضعفت ، فأصبحت الأوضاع الاجتماعية ، والآثار المدنية تصدر عن غير ما كانت تصدر عنه فصارت هى فى واد والعقيدة الدينية فى واد . . وبقى المسلم وفيا لعقيدته الدينية غيورا عليها من جهة ، متقبلا لحياته العملية مطمئنا إلى واقعها من جهة أخرى ؛ حتى أصبح المبدأ النظرى والواقع العملى عنده متباينأ وتولدت من ذلك نظرية تفكيك الدين عن الدنيا ، باعتبار أن الدين خير غير واقع ، والدنيا شر واقع ، وأن العبد المسلم يحمل بين جنبيه دينا لا يؤثر فيه إلا لماما ويعيش فى دنيا لا يعرف فيها إلا كل ما يبعد به عن الدين .

ثم هجمت عليه فى حياته العملية مدنيات أجنبية عنه ، فيها العلم ، وفيها الصناعة ، وفيها القوة ، وفيها الحكمة ، فلم يجد من إرادته الدينية ما يتناول به هذه المدنية كما تناول المدنيات التى احتك بها من قبل ، يوم كانت إرادته الدينية قوية سليمة ، فوقف أمامها جامدا ، واعتبرها من جملة صور الحياة التى كان من قبل آمن بانفكاكها عن الدين ...» .

ذلك هو موطن الخلل . . الذى كان ابن خلدون (٧٣٢ ـ ٨٠٨هـ/ ١٣٣٢ ـ ١٤٠٦م) من أفضل من أدركه ، وحلله . .

«لقد حلل ابن خلدون المشكلة تحليلا دقيقا : عندما جعل شئون السياسة ، والعمران ، والصناعة ، والعلم ، فى الدولة

الإسلامية ، تبعا لشأن الدين . . وجعل الحقيقة الأولى للدين : التى هى العقيدة الفردية أصلا وأساسا لذلك كله فأخذ بدرس مشكلة فساد الدولة وركود العمران - فى عصور الإسلام اللاحقة عن عصوره السابقة - وانتقاص الصنائع ، وتلاشى ملكات العلوم ، واختلال طرائق التعليم فى الأمصار الإسلامية لعهده ، جاعلا ذلك كله راجعا إلى اختلال الحقيقة الأولى للدين ، التى هى أساس العمران الناشئ به ، والدولة القائمة عليه ، أعنى العقيدة الدينية فردَّ ذلك كله إلى صورة تكوّن الفرد تكوّنا إيمانيا ، يرتبط من جهة بالدين الإسلامى فى عقيدته ويسرى منه إلى كل ما انبثق عن تلك العقيدة من مظاهر عمرانية وصناعية وفكرية . .

وإذا كان الناس يكتفون بأن يعللوا ما بدا فى حياة المجتمع الإسلامى وحضارته من إخلال ، بما يرجع إلى نظم الحكم ، وصور الدول ، وما شاع من فساد الخُلق وتفكك الروابط الاجتماعية ، فإن ابن خلدون يطلب لهذه العلل عللا ، ويرد هذه الأسباب إلى أسباب وراءها ، فانقلاب الخلافة إلى مُلك ليس العلة ، وإنما هو عَرَض لعلة تغيّر الوازع الدينى إلى مقاصد التغلّب والقهر ، والتقلّب فى الشهوات والملاذ ، وحلول عصبية الدولة محل عصبية الدين .

لقد أرجع ابن خلدون الحضارة الإسلامية إلى أصلها وأساسها ، أو بالأوضح روحها ، وهو العقيدة الدينية» .

٤. **وإذا كانت هذه هى المشكلة.. فما هو حجمها؟.. وما هو عمرها؟..** إن حجم هذه المشكلة ليس بالهين . . وعمرها ليس بالقصير . . «وإذا كنا لا ننكر أن الحضارة الإسلامية قد تقاصرت وتراجعت وتخلخلت ، وأن الثقافة قد ذوت وانكمشت واصفرت ، وأوشكت أن تصير حطاما ، فإن ذلك ليس وليد الأمس ، ولا أمسه ، ولكنه الأدواء التى استفحلت فى القرون الأخيرة ، حتى أعضلت ، وعز دواؤها ، ثم لم تزل تنمو وتشتد وتتفاقم آلامها وأخطارها حتى انتهت إلى الوضع المفزع الذى ضج قرننا الحاضر منه بالشكوى . .» .

٥. **وأخيرا.. وبعد تحديد روح الحضارة الإسلامية** وتشخيص موطن الخلل الذى أصاب حضارتنا وثقافتنا . . فما هو الحل الحقيقى لهذه المشكلة . . والمخرج من هذا المأزق الذى يأخذ بخناق الأمة؟؟ . .

إن الحل هو فى العودة إلى الروح التى صنعت الحضارة المزدهرة والثقافة المتألقة . . إنه عودة الروح الدينية لتصوغ النهضة الحضارية المتميزة والمستقلة . . وهذا هو المعنى الحقيقى لمقولة : لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها . . «فلولا التكوّن الفردى المكى ، والتكوّن الاجتماعى المدنى ، لما كانت آثار الحضارة التى تبدت فى عواصم الإسلام . . فإذا كان الناس اليوم يحنّون إلى عهود ذهبية ، ازدهرت بها تلك العواصم ، ويتحرقون إلى إحيائها وتجديدها فأجدر بهم أن يعودوا إلى العامل الأصلى الذى ولّد تلك العصور الذهبية ، والذى بدونه لن تعود زهرة تلك العصور

وينعتها ، ألا وهو العامل التربوى الإسلامى ، الذى كوّن الفرد قبل أن يكوّن المجتمع ، ومهد للثقافة طريقها قبل أن يتناول عناصر المعرفة التى ألفت كيانها» .

أما إذا وقفنا عند «استقلال العَلم والنشيد» دون حقيقة «الاستقلال الحضارى» الذى هو ثمرة للصبغة الإسلامية المتميزة ، فلن نخرج من هذا المأزق الذى نعيش فيه . . «لقد خرج العالم الإسلامى من تحت حكم الغير ، واسترجع سيادته الذاتية ، لكن هل هو مستطيع أن يعاود حضارته ليضطلع بأعبائها من جديد ، وليمثل للناس صورة جديدة من الثقافة والحضارة ، منطبعة بطابع شخصيته الإسلامية ، ومنبثقة عن المبادئ الاعتقادية الإسلامية ، التى انبثقت عنها الصورة الماضية التى عرفها التاريخ من ثقافة الإسلام وحضارته؟؟ . .

إن نهضة اليابان ليست بوذية ، ولا نهضة الصين نهضة كونفوشية ، ولا نهضة اليونان نهضة بيزنطية ، ولا أفلاطونية ، ولا أرسطوطاليسية ، بل ولا هى يونانية على الحقيقة بأى حال من الأحوال . فهل سيكون شأن الإسلام مقصورا على هذا الوضع؟ أو أن حضارة إسلامية الروح ، وثقافة إسلامية الطابع ، ستبدوان من بين ذلك القدر المشترك المؤلف بين شعوب الأمة الإسلامية الناهضة المستقلة . . إن روح تلك الحضارة هى الموقع الرئيسى للمشكلة» . .

***

تلك بعض من قضايا وأفكار ومحاور المعضلة التى حار ويحار فيها المصلحون . . روح الحضارة الإسلامية ، التى صنعت وميزت الحضارة والثقافة فى عصور النشأة والازدهار . . وموطن الخلل الذى جعل الحضارة تتراجع ، والثقافة تتهلهل . . والحل والمخرج من هذا المأزق الحضارى الذى تعيشه أمة الإسلام . .

ولقد تناول هذه القضايا الكبرى ، العالم الجليل الشيخ محمد الفاضل بن عاشور فى هذه الصفحات التى تمثل عملا فكريا نفيسا . . والذى نقدمه إلى الباحثين والقراء قبسا من التنوير الإسلامى لينير لهذه الأمة طريق التقدم والنهوض بالإسلام .

والله نسأل أن ينفع به . . وأن يجعله فى ميزان حسنات صاحبه . . إنه أفضل مسئول وأكرم مجيب . .

دكتور

محمد عمارة

إلى القارئ العزيز ..

فى هذه السلسلة الجديدة :

إذا كان «التنوير الغربي» هو تنوير علماني، يستبدل العقل بالدين، ويقيم قطيعة مع التراث.

فإن «التنوير الإسلامى» هو تنوير إلهى: لأن الله والقرآن والرسول - صلى الله عليه وسلم - أنوار تصنع للمسلم تنويرًا إسلاميًا متميزًا.

ولتقديم هذا «التنوير الإسلامى» للقراء، تصدر هذه السلسلة، التى يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامى المعاصر:

- د. محمد عمارة
- د. حسن الشافعي
- أ. فهمي هويدي
- د. سيد دسوقي
- د. عبدالوهاب المسيري
- د. عادل حسين
- المستشار/طارق البشري
- د. محمد سليم العوا
- د. يوسف القرضاوي
- د. كمال الدين إمام
- د. شريف عبدالعظيم
- د. صلاح الدين سلطان

وغيرهم من المفكرين الإسلاميين ..

إنه مشروع طموح، لإنارة العقل بأنوار الإسلام.

الناشر



